

العلاقة بين الإسلام والغرب

إطالة تاريخية

في حوار مع الشيخ محمد تقي سبحاني*

حاوره وعرب الحوار: محمد حسن زراقط

أخي الطيب: سماحة الشيخ سبحاني بعد شكرنا لك وترحيبنا بك، نود أن نسأل عن ما حصل في الدانمارك مؤخراً، وليكن سؤالنا الأول عن طبيعة ما حصل وخلفياته التاريخية فهل هو استثناء وأمر طارئ، أم أنه يمثل جزءاً من مسيرة تاريخية طويلة؟ وذلك أن هناك من يقول بأنه لا جديد في الأمر فما رسمه أولئك الرسامون هو تصوير لمفاهيم وصور مكتوبة أو محكية بالكلمات أو ممثلة في أفلام سينمائية وغيرها

الشيخ سبحاني: بسم الله الرحمن الرحيم، أشكركم على فتحكم لهذا الموضوع المهم والأساسي، وعلى الفرصة التي أتحت لي الحديث فيها حول هذا الموضوع؛ بداية يمكن الحديث عن هذا الأمر من جهات عدة، فعلى سبيل المثال، يمكن الحديث عن خلفياته التاريخية والاجتماعية، وبدون معرفة هذه الأمور لا يمكن التعرف على هذه الظاهرة؛ إذ لا بد من التركيز على بعدها التاريخي، كما لا بد في هذا المجال من التذكير بأن العلاقة بين الإسلام والغرب مرت بمراحل تاريخية متعددة، وهذه المراحل بدورها يمكن تقسيمها إلى مراحل أيضاً. وبشكل عام، يمكن الحديث عن ثلاث مراحل مرت بها هذه العلاقة عبر التاريخ، ومعرفة خصائص هذه المراحل مؤثرة جداً في معرفة طبيعة هذه الحادثة وغيرها من الحوادث المشابهة في عصرنا الحاضر.

* رئيس أكاديمية العلوم والثقافة الإسلامية قم، إيران.

المرحلة الأولى: هي مرحلة ظهور الإسلام والفتوحات الإسلامية وما تلاها من الحروب الصليبية التي تمثل إحدى أعلى مراحل سلطة المسيحية على السياسة في أوروبا؛ في هذه المرحلة ظهر الإسلام ووصل الفاتحون المسلمون إلى قلب الحضارة الغربية، وقد شكل ذلك الصورة الأولية عن الإسلام في الفكر المسيحي، فالحضور الإسلامي من هذه الزاوية هو حضور عسكري حربي، وصورته صورة حضارة تريد الاستيلاء على حضارة أخرى، وهذه الصورة هي المتداولة في التراث المسيحي عن تلك الفترة، وقد استخدم الصليبيون آنذاك هذه الصورة لتحريض المسيحيين على المشاركة في الحروب الصليبية، كما حاولوا استخدام مجموعة من العناصر لتركيب هذه الصورة الخاصة عن الإسلام، فتمّ تصوير الإسلام على أنه إلحاد وخروج عن الدين أو هرطقة، فيما مثل العنف عنصراً آخر في هذه الصورة؛ إذ تمّ التركيز عليه بشكل واضح ليلقن المخاطبون بهذا الخطاب فكرة استحالة التعامل الحضاري مع الإسلام. أما العنصر الثالث، فقد كان تصوير الإسلام على أنه مدمر لكل آثار الحضارة في البلاد التي يدخلها. وقد بقيت هذه الصورة متداولة خلال قرون عدة، وربما ما زالت حتى الآن.

المرحلة الثانية: هي مرحلة نهاية الحروب الصليبية، وقد بدأت هذه المرحلة مع بداية انتقال الثقافة الإسلامية عبر فلاسفة المسلمين وأطبائهم وسائر علمائهم من خلال ترجمة آثارهم إلى اللغات الأوروبية وقد استمرت هذه المرحلة إلى بداية عصر النهضة؛ حيث لم يعد للدين تأثير واضح على الرؤى الفكرية، في هذه المرحلة لم يعد الدين المسيحي عنصراً أساسياً في الحكم على الإسلام وصار ينظر إليه بعين علمانية. وما حصل في هذه المرحلة يمثل تطوراً أساسياً وكانت له آثار إيجابية من خلال حضور الفكر الإسلامي بشكل واضح لدى مفكري تلك المرحلة، وقد تسربت تلك الرؤى عبر جنوب إيطاليا وغيرها من الأماكن. ومن الشخصيات التي يبدو عليها أثر الفكر الإسلامي واضحاً، ألبرت الكبير وهو أحد أبرز علماء اللاهوت في أواخر القرون الوسطى وبدايات عصر النهضة، وقد تأثر هذا العالم إلى حد كبير بابن سينا وأبو حيان التوحيدي وغيرهما.

ولكن حاكمية التفكير العلماني بشكل حاد على هذه المرحلة أدت إلى تبدل الأمر إلى الاستشراق فكان يتوقع من هذه المرحلة أن تكون فاتحة لعصر نهبي لانتشار الفكر الإسلامي في الغرب. ولكن بعد الأحداث التي حصلت في العالم الإسلامي مثل الغزو المغولي الذي دمر الكثير من جوانب الحضارة الإسلامية، تحول الإسلام والفكر الإسلامي

في هذه المرحلة إلى طرف غير فاعل وإنما منفعل غالباً.

وعندها بدأ الغرب ينظر إلى الإسلام بعيون علمانية، وهنا عرضت صورة جديدة للفكر الإسلامي بنيت على أرضية موروثه عن القرون الوسطى. ومن الطبيعي أن تكون النظرة السائدة إلى الإسلام هي النظرة «المتحفية»: أي النظر إلى الإسلام كما ينظر إلى الأشياء المحفوظة في المتاحف. وبالتالي صار ينظر إلى الفكر الإسلامي والإسلام نفسه على أنه قطعة من تاريخ الغرب نفسه، وذلك لأن الفكر الإسلامي هو الوسيط بين حضارة أوروبا في عصر النهضة وحضارة أوروبا اليونانية.

أبي الطيب: هل يمكن لنا التمييز بين استشراق واستشراق آخر، أم أن الاستشراق كله مذهب واحد واتجاه واحد؟ ثم هذه الصورة التي يرسمها الاستشراق عن الإسلام هل هي نتيجة خطأ منهجي أو غير ذلك، أم أن هذه الصورة مرسومة بشكل هادف وواع بهدف تشويه الإسلام والإساءة إليه؟

الشيخ سبحاني: حول السؤال الأول أعتقد أنه لا يمكن وضع كل المستشرقين في خانة واحدة، والتعامل معهم على أنهم يمثلون نمطاً فكرياً واحداً. ولكن توجد مجموعة من النقاط المشتركة بين الجميع، أهمها تكمن في الخلفية الثقافية والفكرية التي ينطلقون منها، وهي النظر إلى الإسلام بعيون القرون الوسطى، كما أن المنهج العلماني واللا ديني أيضاً هو الحاكم على رؤية الاستشراق إلى الإسلام. وأنا لا أتحدث هنا عن أبحاث الكنيسة عن الإسلام. وكذلك تجدر الإشارة إلى أن الفكرة الأكثر انتشاراً عن الإسلام هي أنه لا يمثل فكراً أصيلاً، وإنما كان المجتمع الإسلامي أرضية نمت فيها رؤى الآخرين وتصوراتهم، ولم ينظر إلى الإسلام بوصفه ديناً وحضارة مستقلة لها أسسها الخاصة والذاتية.

ولكن المهم هو البحث عن أسباب هذه النظرة ومنتشأها ولا أريد الحديث عن النوايا السيئة أو الحسنة، وإنني أرى في هذه النظرة أنها نظرة الثقافة الغالبة إلى الثقافة المغلوبة، وأعتقد أن هذه هي الخصوصية الأساسية التي ولدت هذه النظرة. فكان ينظر إلى الإسلام على أنه أمر مرتبط بالتاريخ والماضي وليس ديناً حياً في الواقع المعاصر لبدائيات الاستشراق، وبالتالي تبدلت الحضارة الإسلامية إلى موضوع للدراسة والبحث وليس بعنوان واقع حي يتم التعامل معه وفهمه من خلال هذا التعامل: إذ تحول الإسلام في الرؤية الاستشراقية إلى موضوع غير أصيل، من الماضي ولا يمكن إحياءه بل هو يمثل مقطعاً من تاريخ الإنسانية.

أيّ الطيّب : هنا نود السؤال عن دور المسلمين في التعريف بدينهم، ولكن المشكلة في هذا المجال أن الفارق بين الرؤيتين ليس صغيراً، فبيدأ من حقوق المرأة والطفل وغيرها وينتهي إلى حقوق الأمم والشعوب، وبالتالي يشعر المراقب أنه أمام منظومتين فكريتين بينهما بون شاسع يؤدي إلى اليأس من إمكانية التفاهم بينهما. فهل يمكن للمسلمين فعل شيء لتقريب المسافة بين الرؤيتين؟ أم أن المشكلة تكمن في اختلاف الأرضية التي يقف عليها الاستشراق عن الأرضية التي يقف عليها الفكر الإسلامي وبالتالي يكون الخلاف بين الرؤيتين قدراً لا مفرّ منه؟

الشيخ سبحاني: أعتقد أن انحطاطنا الحضاري وعدم حضورنا الفاعل في الميدان هما السبب في تشويه صورة الإسلام. في مجال حقوق المرأة مثلاً، ما فهمه الاستشراق من حقوق المرأة هو من تراثنا العرفي؛ وذلك لأننا لم نكن في مرحلة نشاط حضاري. فالمستشرق جاء ونظر إلى المجتمع الإسلامي القائم بعيون حداثوية والمجتمع الذي كان قائماً في تلك الفترة لم يكن مجتمعاً حياً فعلاً، بل كان في الجهة المقابلة تماماً وهو بقايا ومخلفات لعادات وتقاليد أكثر مما هو تمثيل للدين الإسلامي الحقيقي. ومن هنا رأى المستشرق الحدائوي صورة طبق الأصل عن صورة القرون الوسطى. وأما المرحلة الثالثة من المراحل التي كنا نتحدث سابقاً عنها، فهي مرحلة إعادة إحياء الفكر الإسلامي؛ في هذه المرحلة التي يحاول المفكرون المسلمون الاشتغال على إحياء مفاهيم الفكر الديني وإعادة بعثها في المجتمع الإسلامي ومقاربة كثير من المسائل بعقلية مختلفة، في هذه المرحلة يبدأ الغرب بإبراز معادلة جديدة، هي معادلة الإسلام والغرب ضمن استراتيجية هادفة لمواجهة الإسلام، ويتم الحديث عن الإسلام في كل وسائل الإعلام والتثقيف الغربية بوصفه يمثل تحدياً غير حضاري للحضارة الغربية، وربما يعود السبب إلى أن الحضارة الغربية تحتاج إلى عدو ولو افتراضي ليتسنى له المواجهة، وتحقيق أهدافه الاستكبارية، ذلك أنه إذا لم يتم تصوير الآخر بصورة سلبية وتحويله إلى عدو مخيف وإذا لم يعمل على تظهير بل تكبير نقاط الاختلاف والتمايز، إذا لم يتم كل ذلك فلا يوجد أي مبرر للحضور العسكري والحروب التي تخاض للسيطرة على ثروات الشعوب، فالدنيا تحتاج إلى شرطة دولية عندما لا يكون هناك استقرار.

أيّ الطيّب : أود أن أتوقف عند هذه النقطة من الحديث عن مراحل مر بها الاستشراق أو علاقة الإسلام بالغرب، فقد قلتم إنكم لا تريدون الحديث عن النوايا وهذا أمر صحيح، ولكن الواقع

المشهود يثير فينا سوء الظن، فالصورة التي رُسم بها النبي (ص) في الدانمارك تريد أن توحى بالعنف الموجود في الفكر الإسلامي وكذلك الأمر في الصور الأخرى التي تجسد الكلام المكتوب منذ عشرات السنين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تحدثت عن مرحلة كان يمكن لها أن تبشر بالخير في علاقة الإسلام بالغرب، وهي مرحلة انتقال العلم عبر الترجمة من العالم الإسلامي إلى الغرب، والسؤال المطروح هنا، لماذا لا نرى أي أثر مهم عن هذه المرحلة بل نجد التركيز الدائم على الجوانب السلبية؟ فهل يمكننا إلى هذا الحد استبعاد سوء النية؟

الشيخ سبحاني: في الواقع، في كل مرحلة من المراحل التي تحدثت عنها يمكن الإشارة إلى بعض النوايا السلبية، لوجود من كان يعمل بخبث لتشويه صورة الإسلام والفكر الإسلامي، وذلك يعرفه كل من يطلع على وسائل الإعلام الغربية. ولكن السؤال، لماذا يقبل هذا التصوير عن الإسلام في المجتمع الغربي، ويجد له من يتبناه ويدافع عنه؟ أعتقد أن هذا القبول يستند إلى الصورة الموروثة من القرون الوسطى، وأما حول ما يمكن لنا فعله فأعتقد بوجود نقطة إيجابية وأخرى سلبية، ولا ينبغي أن نلقي كل التبعات على الآخرين، فهناك أذهان حية تنتج الفكر وأخرى تستطيع التلقي. وبناء على هذا الاستعداد، فإن لنا فرصة علينا الاستفادة منها وهذه الفرصة هي فرصة حياة الفكر الإسلامي واستعداده لتوليد أفكار تمهد لإعادة بناء الحضارة الإسلامية من جديد.

هذه الحيوية التي نشاهدها الآن في الفكر الإسلامي لم تكن موجودة منذ مائتي سنة تقريباً. وفي الجهة المقابلة يوجد تهديد جدي، هو أن مصالح العالم الإسلامي متعارضة مع مصالح الغرب، وبالتالي فإن أي حركة تقوم بها وحتى عندما نتحدث عن التصالح والسلام وحوار الحضارات، فنحن والغرب نعلم أننا نتحدث عن مصالح متضادة وهذه المصالح مصالح استراتيجية تلبس لبوس الأيديولوجيا؛ فلا يمكن تحقيق التصالح بسهولة بين الليبرالية السائدة في أمريكا مثلاً وخاصة بنسختها الأكثر تطرفاً الآن؛ لأن العقلية الرأسمالية لا تقبل بوجود أي حدود تحول دون تحقيق مصالحها في الحصول على الأسواق والمواد الخام.

والحضارة الإسلامية التي يراد بناؤها ليست مجموعة من الأشخاص يمكنهم العيش في أي مكان، بل هي حضارة تحتاج إلى فضاء واسع لتبني فيه تصوراتها ورؤاها. وهذا تهديد جدي، وأرجع سؤالكم إلى هذا الأمر، وهو: كيف يمكن التعامل مع هذه الخلفية التاريخية والمعاصرة التي تكمن وراء الصورة التي يحملها الغرب عن الإسلام؟

الخطبة: ألا ترون أن الإصرار على استخدام نفس المفاهيم التي كانت رائجة في القرون الوسطى ليس إصراراً بريئاً؟ وبالتالي هناك من يعتقد بأننا عدنا إلى مرحلة الصراع بين الأديان، وليس صراعنا صراعاً سياسياً، ما هو تقييمكم لهذا التصور؟

الشيخ سبحاني: في الصورة الحالية للنزاع بين الشرق والغرب نجد مجموعة من العناصر، منها الدين والمقدسات، وبخاصة أننا نجد الدين في الغرب - إذا أخذنا أمريكا نموذجاً - يمثل عنصراً مهماً في حركته السياسية، فلم تعد العلمانية هي نفس العلمانية التي كانت سائدة منذ مدة.

العنصر الثاني هو الثقافة المحلية، والعنصر الثالث هو الجغرافيا، فالصراع الدائر الآن بين الإسلام والغرب هو صراع له أبعاد جغرافية نظراً للبقعة الجغرافية الحساسة التي يتمركز فيها الإسلام وما يرتبط بهذه البقعة من مصالح ومنافع اقتصادية.

إننا، أنا وأوافق على دخول الدين بوصفه عنصراً مهماً في هذا الصراع وبالتالي يمكن القول إننا عدنا بشكل أو بآخر إلى مرحلة الحروب الصليبية، وهذا الأمر له أسبابه ومبرراته فمن جهتنا لا يمكننا إحياء الحضارة الإسلامية من دون الإسلام. أما من جهة الغرب فيبدو أن العلمانية فقدت القدرة على تحريك الاجتماع الإنساني، ومن هنا تحاول الليبرالية الغربية الاستفادة من الدين كعنصر محرك لتبرير بعض تصرفاتها. ومن هنا تجري إعادة إحياء الصورة القروسطية عن الإسلام.

الخطبة: هنا، إذا أردنا أن ننصف بعض الغربيين فربما يمكن القول: يوجد شيء من سوء التفاهم بين الإسلام والغرب، مثلاً بالرغم من أن المسلمين يشكون من الدعوى الغربية التي تروج لفكرة انتشار الإسلام بالسيف ويعتبرونها تهمة يحاولون ردها عنهم. فقد برز في المقابل أحد المستشرقين وهو توماس أرنولد في كتابه الدعوة الإسلامية يتبنى نظرية مخالفة تماماً، حيث يرى أن الإسلام انتشر بالدعوة وليس بالسيف. مثل هذا الشخص اتهم بأنه يحاول التقليل من قيمة الجهاد من أجل تمكين الاستعمار البريطاني من السيطرة على الهند؛ ألا يحير هذان الموقفان المفكرين الغربيين؟

الشيخ سبحاني: عندما نتحدث عن الغرب والاستشراق لا نتحدث عن كل المستشرقين ولا كل الغرب، وذلك لوجود بعض الأشخاص الذين يسعون إلى التعرف على الإسلام وتجاوز الدعاية السلبية عنه. ومع الأسف لم نستفد ولا نستفيد من هذه الفرصة، ولم يستطع المسلمون عرض الإسلام بشكل يتناسب مع العصر الحاضر، ولا توجد أي صلة

حقيقية منتجة بين المسلمين وبين هؤلاء، فلا نملك نشرة مهمة تخصص للتعريف بالإسلام بصورة مناسبة. وفي المقابل نجد بعض المبررات التي يتمسك بها الإعلام الغربي كبعض الأعمال العنيفة التي يقوم بها بعض المسلمين بين فترة وأخرى.

الحج الطيب: ألا تعتقدون أن المشكلة لو كانت هي التقصير يمكن تجاوزها والتغلب عليها، وكذلك لو كانت عجزاً أنياً؟ ولكن هناك من يقول إن القضية قضية منظومتين فكريتين مختلفتين، وبالمناسبة أستعير تعبير محمد إقبال الذي كان يقول: «لا يمكن أن يعيش من يقدس البقرة ومن يأكلها في بلد واحد». وفي هذا الميدان، المسلمون يقدسون بعض المفاهيم كالله والنبي والقرآن وما شابه ذلك، بينما الغرب له مقدسات أخرى تتعارض مع بعض المقدسات الإسلامية، كحرية التعبير المدعاة وبين قداسة النبي مثلاً؟ وفي ظل هذا التعارض هل يمكن التوفيق بين هاتين الرؤيتين؟

الشيخ سبحاني: أعتقد أن الغرب نفسه قد تجاوز الدعوة إلى الإلحاد الصريح الحاد، ويبدو أن صعوبات الحوار قد تبدلت عما كانت عليه سابقاً وبالتالي صار التحاور مع الغرب أكثر سهولة. والخطوة الأولى في هذا المجال هو التعريف بالإسلام بوصفه نظاماً فكرياً منسجماً يدعو إلى كثير من القيم التي تدعو إليها الحضارة الغربية. ومشكلتنا الأساس، هو أننا لم نستطع توضيح صورة الإسلام الكاملة، مثلاً، التفاوت بين المرأة والرجل في الفكر الإسلامي له مبرراته التي تهدف إلى الحفاظ على ما هو أهم. وإذا استطعنا كشف هذه المبررات وإظهارها، عندها نستطيع بيان أن الاختلاف بيننا وبين الغرب في التفاصيل والجزئيات وليس في القيم الكلية الكبرى. وقد أخذ الغرب هذه التفاصيل الجزئية، حيث إنها الأكثر وضوحاً وبنى رؤيته للإسلام عليها.

وثانياً، لم نستطع حتى الآن فتح باب الحوار مع الغرب للتعامل مع المنصفين الغربيين، وأظن أنه ليس كل الغرب يريد كسر كل الحدود الأخلاقية تحت شعار حرية التعبير. بل يوجد الكثيرون في أوساط المفكرين الغربيين لا يوافقون على مقدسات الحداثة من الحرية وحقوق الإنسان وغير ذلك بشكل مطلق. والآن إذا استطعنا تقديم طرح جديد يصور الإسلام بشكل تتضح فيه كيفية الحفاظ على بعض القيم الجيدة في الحضارة الغربية. ولست يائساً من إمكان فتح باب الحوار للوصول إلى نوع من الحوار بعيداً عن الصراع بين منظومتين فكريتين لا تلاقي بينهما.

أبو الطيب: ما هي الآليات المتصورة لتصحيح، أو على الأقل التخفيف من حدة الصورة النمطية عن الإسلام، في ظل حالة عدم التكافؤ في الفرص بين الطرفين؟

الشيخ سبحاني: أرى أننا بحاجة إلى وضع خطة استراتيجية، ولا يمكن القيام بأي شيء في هذا الصدد بقرار بسيط، وذلك لوجود تعقيدات كبيرة في هذا المجال. وتوجد مجموعة من القواعد والأصول التي لا بد من مراعاتها هنا:

أولاً: لا بد من فصل ساحة السياسة عن ساحة الثقافة؛ وذلك لأن الاستكبار الغربي يحاول التعطيم على الثقافة الإسلامية من خلال السياسة، ونحن يجب أن نفرص بين الأمرين؛ أقصد أنه بإمكاننا التأسيس لحالة تفاقم مع النخب الغربية بعيداً عن الصراع السياسي الدائر بين الإسلام والاستكبار الغربي.

ثانياً: لا بد من الاستفادة من الفرص التاريخية والاجتماعية، واعتقد أن الظروف الموجودة حالياً بالرغم من كل تعقيداتها تسمح بشيء من التواصل. وأنا أعتزف بوجود جماعة كبيرة في الغرب ليست مستعدة للحوار بشكل متكافئ، ولكن هناك بعض بقع الضوء.

ثالثاً: لا بد من إعادة النظر في أساليب طرحنا لبعض الأفكار الإسلامية، ومشكلتنا أننا نتحدث مع الآخر الغربي بالطريقة نفسها التي نتحدث بها مع الذات. وما يجب فعله هو ضرورة إعادة النظر في أدبياتنا وطرائق تعبيرنا عن أفكارنا، واعتماد التدرج في بيان ما نريد بيانه. وغير الأدبيات، فإن كثيراً من الأفكار والقيم بقيت مهجورة لم يعرفها الآخر عنا، وربما لو عرفها لكان لها الدور الكبير في تحسين صورة الإسلام في الغرب. وكذلك لا بد من إشعار الغرب بأننا نتفهم قيمه، وما لم نفهم هذه القيم لا يمكننا التعامل مع الغرب. وبكلمة مختصرة، توجد بعض الفرص التي لا بد من الاستفادة منها.

وأخيراً، الأمر الذي لا بد من إنقاز الخوض فيه، هو معرفة كيفية وسبل مواجهة الحرب الإعلامية التي يخوضها الغرب ضدنا، وهذا تحد يواجه المسلمون وعليهم التعامل معه، وبخاصة بعد ارتباط مصالح هذه الوسائل الإعلامية بأماكن وقوى معادية للإسلام. فهل يمكن القفز عن هذه الأزمة واختراق الحصار الإعلامي؟

أبو الطيب: سماحة الشيخ محمد تقي سبحاني، نشكر لكم ما قدمتموه من وقت وفكر على أمل لقاء جديد.